الرجل الأعلى والأساس الخلقي عند كونفشيوس

دراسة تحليلية نقدية

دكتور

سامي صلاح الدين زكي نجم

ملخص

الحضارة الصينية واحدة من أهم الحضارات الآسيوية القديمة، وتعد النظم الصينية أعظم ما أنتجه ذلك الفكر البشري، وعلى الرغم من أنها لم تهتم نوعا ما بالميتافيزيقا، إلا أنها اهتمت بعناية فائقة بكل ما يعد إنسانيا، لما كانت ترى أن الإنسان هو مركز الكون.

كونفشيوس هو النموذج الأعلى المعبر عن روح هذه الحضارة، بل يضاهي بحياته وفكره نموذج الرجل الأعلى الذي رسمته فلسفته. وفي سبيل الوقوف على حقيقة الترابط الموضوعي بين عناصر الفلسفة والكونفشيوسية ونمطها الأخلاقي، وما إذا كانت تعتبر أصلا فلسفة يستخدم الباحث منهجا تحليليا في سبيل ذلك.

Chinese civilization is one of the most important ancient Asian civilizations , and Chinese systems considered on of the greatest products of the human thinking although it didn't give high consideration to metaphysics but it gave intensive care to humanities where it considered the human as the center of universe.

Confucius life and thoughts were a real expression of the superior man model which illustrated through his philosophy.

The researcher here is using analytical study to investigate the objective correlation between Confucius philosophy elements and its moral style , and if we basically can consider it as a philosophy.

مقدمة

تعد الحضارة الصينية واحدة من أهم الحضارات الأسيوية القديمة التي ظلت لقرون طويلة تمد الثقافة الإنسانية بكثير من الذوق والرقي ولذا فإن ديدرو قد أصاب كبد الحقيقة حين قال عنهم: أولئك قوم يفوقون كل من عداهم من الأسيويين في قدم عهدهم ، وفي فنونهم ، وعقليتهم ، وحكمتهم ، وحسن سياستهم ، وفي تذوقهم للفلسفة ؛ بل إنهم في رأي بعض المؤلفين ليضارعون في هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوروبية وأعظمها استنارة.

وتعد النظم الصينية أعظم ما أنتجه الفكر البشري لسيطرتها على أهلها ونفاذها في قلوبهم لأربعين قرنا من الزمان دون أن يطرأ على هذه النظم تغيير يذكر سواء في عادات القوم أو لغتهم أو حتى بالنسبة للقوانين ، فالحضارة الصينية بحق أكمل صورة من صور الإنسانية كما قال الكونت كيسرلنج.

فالحضارة الصينية رغم أنها لم تهتم نوعا ما بالميتافيزيقا التي تعتبر أكثر إشكاليات الفلسفة التقليدية جدلا إلا أنها اهتمت بعناية فائقة بكل ما يعد إنسانيا لما كانت ترى أن الإنسان هو مركز ذلك الكون والأحق بالبحث والتفكير والعناية ، فهي حضارة باحثة عن الإنسان ، دائمة السعي وراء اكتشاف ذلك الكائن العجيب وإبراز مواهبه ومن ثم تنميتها.

الفلسفة الصينية فلسفة اجتماعية ، أخلاقية ، تحاول الوصول بالإنسان لأفضل حياة ممكنة ليحيا حياة طيبة ، ولذا يقول ول ديورنت في قصة الحضارة عن دراسة هذه الحضارة: إن " دراسة بلاد الصين عملا من الأعمال المجيدة " ، ومن بين صفحات هذه الحضارة كان فكر كونفشيوس.

أهمية البحث:

- يوضح هذا البحث جانبا من جوانب الحضارة الصينية متخذا الأخلاق عند كونفشيوس موضوعا له.
- يبرز هذا البحث الصفات المثلى التي رآها كونفشيوس في الرجل المثالي الذي ظل حياته كلها يبحث عمن لديه الاستعداد الداخلي ليتلقاها عنه.
- كما أن البحث يحدد الأسس الأخلاقية التي أقام كونفشيوس عليها مذهبه.
- يشرح البحث كيفية تعامل كونفشيوس مع المجتمع الصيني بكل ما له وما عليه.

أسباب اختيار البحث:

تعد الحضارة الصينية بوجه عام والكونفشيوسية بوجه خاص من مواد البحث الخصبة في الدراسات الإنسانية المعاصرة وذلك لحداثة نسبية في اكتشاف تاريخها وأفكارها، وللاتصال الواضح في هذه الحضارة بين الماضي السحيق والواقع المعاصر ، وللنهضة العلمية التي لحقت الأمة الصينية بها مؤخرا ، فأراد الباحث أن يتناول جانبا من هذه الحضارة.

إشكاليات البحث:

١. هل تتسم الأخلاق الكونفشيوسية بالترابط الموضوعي بين عناصرها؟
٢. إذا ما كان ثمة ترابط بين عناصر الأخلاق الكونفشيوسية ، فهل يمكن تحديد الأسس التي أقام كونفشيوس عليها نمطه الأخلاقي؟
٣. هل يمكن أن تدل الأخلاق الكونفشيوسية على مذهب فلسفي أخلاقي؟

المنهج المتبع في البحث:

اتبع الباحث في معالجته لموضوع البحث منهجا تحليليا قائما على تحليل الفقرات الواردة على لسان كونفشيوس ، وتتبع معالجته للمواقف التي تعرض لها في حياته بالتحليل.

كما اتبع الباحث منهجا نقديا للنصوص التي ذكر فيها أقوال كونفشيوس ، وكذلك التي كتبت عنه.

خطة البحث المقترحة:

عالج الباحث الموضوع مقسما إياه إلى:

مقدمة

ذكر فيها أهمية البحث ، ثم أسباب اختياره لهذه الموضوع ، ثم إشكاليات البحث ، ثم المنهج الذي اتبعه في بحثه ، وأخيرا خطة البحث التي تنقسم إلى:

أولا: تمهيد.

ثانيا: الفصل الأول: الرجل الأعلى في الفكر الكونفشيوسي.

- **المبحث الأول: طريق الرجل الأعلى.**
- **المبحث الثاني: محبة الحب.**
- **المبحث الثالث: الالتزام بالطقوس والشعائر.**
- **المبحث الرابع: احترام العائلة.**
- **المبحث الخامس: الاستعداد والاستقامة.**
- **تعقيب.**

ثالثا: الفصل الثاني: الاتجاه الخلقي عند كونفشيوس.

- **المبحث الأول: الأساس المعرفي للأخلاق.**
- **المبحث الثاني: الوحدة ومحبة الحب.**
- **المبحث الثالث: علاقة الرجل الأعلى بالمجتمع.**
- **تعقيب.**

رابعا: خاتمة.

خامسا: قائمة بأسماء المصادر والمراجع.

سادسا: الفهرس.

تمهيد

إن مما امتاز به الفكر الصيني القديم نزعته الأخلاقية واتجاهه إلى السلوك الإنساني لتقويمه ، ولقد كان هدف العقل الصيني أن يخرج هذه القيم الأخلاقية من إطارها النظري إلى حيز الوجود ممثلا في التطبيق الإنساني لهذه القيم.

ولا يعني هذا أن مفكري الصين لم يكن لهم رأي خاص بغير مباحث الأخلاق ، ولكنهم ربما كان لهم رأي سلبي بشأن بعض الإشكاليات تمثل في رفضهم لمناقشة بعض هذه المسائل الفلسفية ؛ إما لانقطاع صلتها بالإنسان الذي يعد مركز الكون وله الأولوية عند الصينيين القدماء في البحث والتفكير، وإما لأن بعض هذه الإشكاليات مما ليس في مقدور الإنسان إدراكه فالبحث فيه بحث فيما لا سبيل للوصول فيه إلى حقيقة.

الكونفشيوسة تعتبر من أعظم النزعات الفلسفية عند الصينيين وهي نزعة منسوبة إلى مؤسسها " كونج . فو . دزه أو كونج المعلم كما كان تلاميذ كونج . تشيو يسمونه في عام ٥٥١ ق.م ، في مدينة تشو"[١] ، وموقع هذه المدينة الآن " هو موقع مقاطعة شاتونج Shatong الحالية "[٢].

" وتحيط بنشأة الفيلسوف الكثير من الأساطير ، ولكنه من بين هذه الأساطير يمكن التعرف على بعض ما كانت عليه تلك النشأة من ميلاد غير شرعي في أسرة تنتمي إلى عائلة من أعرق عائلات الصين ؛ من نسل الإمبراطور هوانج . دي ، والتي لم تزل حتى يومنا هذا.

وكان كونفشيوس قد نشأ في أسرة فقيرة وعمل في طفولته ليساعد والدته بعد موت أبيه وهو لم يزل في الثالثة من عمره ، والذي كان في

(١) ول ديورنت . قصة الحضارة . م ٣ ، ٤ . ج ٤ . ص٤٠ . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ٢٠٠١.

(٢) د/ مدحت محمد نظيف . الألوهية في الفكر الإنساني القديم . ص ١٣٧ . مطابع دار الوثائق .

السبعين من عمره حين ولد ذلك الفيلسوف ، وراح يوجد لنفسه وقتا يتعلم فيه الرماية والموسيقى رغم ذلك حتى بلغ الثانية

والعشرين من عمره فبدأ يشتغل بالتعليم ، وكان يتقاضى من التلميذ ما يستطيع دفعه مقابل تعليمه ، ووضع منهجا لبرنامجه التعليمي الذي اعتمد فيه على نقل علمه مشافهة شأنه في ذلك شأن سقراط ، فعلم تلامذته مختلف العلوم والفنون المتاحة في عصره من تاريخ وشعر ، وأداب اللياقة ، وكان قد أنجب ابنا وحيدا "[١]

ولقد تأثر كونفشيوس بواقع المجتمع الصيني وذلك لأنه " عندما شب هذا الرجل ووجد الحالة السياسية والاجتماعية في الصين يسودها الظلم والانحلال والكراهية بين الحكام والمحكومين إلى غير ذلك من السلبيات بدأ يدعو إلى مبادئ خاصة ، وهذه المبادئ ناتجة عن تأملات في الشروط المطلوبة لمجتمع مثالي " [٢]، ولقد قضى كونفشيوس حياته في الدعوة لرأيه متنقلا من مكان إلى مكان حتى استدعاه دوق جيه إلى " لو " ليقضي فيها ما تبقى من حياته التي بلغت تسعة وتسعين عاما ، وقد آثر في ختام حياته بـ " لو " أن يعتزل الجموع متفرغا لنشر روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصينيين.

(١) انظر: ول ديورنت . قصة الحضارة . مرجع سابق ، تلخيص .

(٢) جون كولر . الفكر الشرقي القديم . ت: كامل يوسف حسن . م: د/ إمام عبد الفتاح . المجلس الوطني للثقافة والفنون . الكويت .١٩٩٥م . ص٣٣٣ .

الفصل الأول

الرجل الأعلى في الفكر الكونفشيوسي

الرجل النبيل في أكثر عصور البشرية هو ذلك الرجل الذي انحدر من نسل عريق وسلالة متميزة عن باقي طبقات الشعب الكادحة.

لم يكن الأمر مختلفا عند الصينيين بل إن كلمة << تشون تزو Chun tzu >> والتي تعني النبيل " يكاد يكون لها معنى دولي يماثل إلى حد ما المعنى الأصلي لكلمة << الجنتلمان Gentlman >> عندنا "[١]

ولكن كنفشيوس قد " غير استعمال هذه الكلمة تماما ، إذ أكد أن أي رجل يمكن أن يكون نبيلا بعيدا عن الأنانية وعادلا وشفيقا. ومن ناحية أخرى أكد أنه لا يمكن اعتبار الإنسان نبيلا على أساس المنبت "[٢] بل على أساس من الفضائل التي يتعلمها الإنسان في تربيته تلك التربية التي " يجب ألا تكون هناك تفرقة طبقية "[٣] في مجالها.

فلم يكن طنفشيوس ليرفض راغبا في التعلم قط أيا كان شأنه وأيا كان المقابل الذي يدفعه له ؛ لأنه كان راغبا في العثور عن الرجل الذي تكتمل فيه كل الفضائل ليصبح الرجل الإعلى.

لقد عمل كنفشيوس على تعليم الناس الأخلاق ليرتقي بهم ، تلك الأخلاق التي تستمد من ذاتية الفرد من جهة ، ومن العرف العام من جهة أخرى ؛ لأن كليهما لا ينفصل عن الآخر الفرد والمجتمع.

---

(١) هـ . ج . كريل . الفكر الصيني من كنفشيوس إلى ماوتسي تونج .ت: عبد الحميد سليم . مراجعة علي أدهم . الهيئة العامة المصرية للكتاب . ص ٤٤.

(٢) المرجع السابق . ص ٤٥.

(٣) المقتطفات الأدبية ، ٣٨/١٥ نقلا عن : المرجع السابق . ص ٤٦.

المبحث الأول: طريق الرجل الأعلى.

لقد أنشأ كونفشيوس مذهبه الإنساني على فكرة تكوين الرجل المثالي بحيث يصبح ذلك الرجل معيار الصلاح في كل شيء ، فهو رجل يحزنه ألا يكون مثاليا يسعى دائما لأن يكون كفؤا فهو يخشى ألا يصل إلى الحقيقة رغم أنه لا يخشى أن يعيش فقيرا.

ولصنع ذلك الرجل فإن ذلك يستدعي مراقبة تكوينه جزءا جزءا ليس فقط سماته العقلية ، أو النفسية ، أو حتى الجسمية ، ولكنها مراقبة شاملة لكل هذا ، ولذا كان البيت منبت الحكمة الكونفشيوسية وأساسها ، ومن ثم يصبح الفرد المنظم في الأسرة المنتظمة هو أساس المجتمع الصالح ، واعتبر كونفشيوس كل من الذكاء ، والشجاعة ، وحب الخير فضائل لابد من اجتماعها في الإنسان الأعلى أو الرجل المثالي في الكونفشيوسية.

ولكي يصبح الرجل الأعلى على ما ينبغي أن يكون لابد أن يتحلى بـ"أربع فضائل رئيسية تتشعب عنها كل القيم الأخلاقية التي ينبغي أن يتحلى بها الفرد حتى يصل إلى الكمال الإنساني "[١] وسيأتي الحديث عن هذه الفضائل فضيلة في مباحث خاصة.

ولقد لاحظ الباحث أن هذه الفضائل الأربع عملية في معناها ومفادها رغم ما تحمله من أسس نظرية إلا أن الجانب العملي في الأخلاق الكونفشيوسية إنما هو سر تلك الأخلاق التي تعتمد على السلوك ، فالمثالية الخلقية عند كونفشيوس تتمثل في الرجل الذي " يعمل قبل أن يتكلم ثم يتكلم بعدئذ وفق ما عمل "[٢].

---

(١) د/ هالة أبو الفتوح . فلسفة الأخلاق السياسية . دار القيادة للطباعة والنشر . ٢٠٠٠م . ص٧٥ .

(2)Confucius Analects,XIV,XVIII,2,in legge, jas, Chinese Classics,Vol,1: Life And Teachings of Confucius..نقلا عن قصة الحضارة. ت: محمد بدران

ومن هذا التقدير للجانب العملي في السلوك ، والطريق الذي يبحث عنه كونفشيوس يتضح سر تنقله وتلامذته من مكان إلى آخر ، فمذهبه ليس مذهبا مدرسيا ؛ وإنما مبناه على استخراج الحكمة من الحياة والمخالطة ، فلا مجال للبحث الأكاديمي الخالص . إن صح ذلك المعنى بالنسبة للصينيين . في الوصول إلى الحكمة ، بل القول إنه لا مجال لمعرفة الحكمة وتحقيق الكمال بين جدران المعابد والمدارس الكهنوتية عند الصينيين لا يعد قولا مرفوضا.

لقد اعتبر كونفشيوس أن طريق الوصول إلى الحكمة يكمن في مخالطة الجماهير والتفاعل معهم ولذا نجد الشبه كبيرا بين كونفشيوس وسقراط الذي كان يعقد محاوراته في الأسواق ، على الرغم من اختلاف الفيلسوفين في نهاية كل منهما فيظهر أن الصين تقبلت فكرة الفلسفة العملية أكثر مما تقبلته أثينا الأمر الذي أحدث إثر الحكم على سقراط بأن " هرب تلميذه أفلاطون من أثينا ، وعندما عاد إليها أحجم عن التفلسف في الأسواق كما كان يفعل أستاذه سقراط ، فأقام مبنى أطلق عليه اسم " الأكاديمية " تقوقع فيه ، فانعزلت الفلسفة عن رجل الشارع "[1] لا مجال للعزلة المطلقة لمن أراد البحث عن الحقيقة والتأثير بها في الناس تعليما لهم أو ممارسة لها بينهم رغم ما قد يكون لهذه العزلة من بريق سيما إذا ما انتشر الظلم وعمت الفوضى ، ولكن حتى هذه الظروف القاسية لم تستطع أن تقنع كونفشيوس كي يعتزل الأحداث.

لقد تعرض كونفشيوس لموقف أثبت هذا القول ورفضه للعزلة ، وذلك أثناء تنقله مع تلامذته " وبينا كانت هذه الفئة الصغيرة في يوم من الأيام تجوس خلال " تشي "إذ التقت بشيخين عافت نفسهما مفاسد ذلك العهد ، فاعتزلا

(١) د/ مراد وهبة . ملاك الحقيقة المطلقة . ص٢٣٦. الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الشئون العامة كما اعتزلها لو . دزه ، وآثرا عليها الحياة الزراعية البعيدة عن جلبة الحياة العامة وعرف أحد الشيخين كونفشيوس ، ولام تزه . لو على سيره في ركابه ، وقال له: إن الاضطراب يجتاح البلاد اجتياح السيل الجارف ، ومن ذا الذي يستطيع أن يبدل لكم هذا الحال؟ أليس خيرا لكم أن تتبعوا أولئك الذين يعتزلون العالم كله، بدل أن تتبعوا ذلك الذي يخرج من ولاية إلى ولاية "[١] ورغم أن كونفشيوس قد فكر في هذا الأمر طويلا إلا أنه من المؤكد رفضه لتلك النظرة بدليل عدم إقدامه عليها إلا عند إحساسه بقرب نهايته فآثر الخلوة لينشر " روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصين " [٢].

(١) Confucius Analects, legge,82، نقلا عن قصة الحضارة. ص٤٧.

(٢) المرجع السابق. ص٤٨.

المبحث الثاني: محبة الحب.

لقد اهتم كونفشيوس في بحوثه الخلقية بفكرة المطلق رغم أنه لم يكن ليخوض في أي إشكاليات تدور حول تحديد ذلك المطلق أو الغير محدود حيث يقول تلاميذه: " الموضوعات التي لم يكن المعلم يخوض فيها هي الأشياء الغريبة غير المألوفة ، وأعمال القوة ، والاضطراب ، والكائنات الروحية "[١] ، ولكن هناك اهتمام نوعا ما بالمطلق من خلال رؤيته للمعاني والصفات الإنسانية فنراه لا يتحدث عن أحداث جزئية لاسيما في معنى الحب فهو لا يقصد حب شيء معين وإنما يقصد معناه الموسع المطلق.

الرجل الأعلى هو الذي تتمثل فيه صفة الحب كاملة دون أن يشوبها شيء من كراهية فهو يحب الوجود لأنه لا يجوز أن يكون غير محب ، فالإنسان جزء من تكوين ذلك الكون فلابد أن ينسجم معه دون اختلاف أو تضاد ، إنما يتعامل الإنسان مع الكون من خلال " جين " jen أي حب الحب لذاته تلك هي الفضيلة الأولى التي لا يمكن لواحد من البشرأن يكون إنسانا إلا بها.

لقد ارتقى كونفشيوس بمعنى الحب ليتحدث عن الحب المطلق وذلك عندما يصف الرجل الأعلى بأنه يحب الحب لذاته لا لعرض يطرأ أمامه أو لصورة جزئية ربما لا تعبر علاقة الحب بينها وبين الإنسان إلا عن الهوى، أما الرجل الكامل المثالي فهو يحب لأن الحب يجب أن يطلب لا لشيء غيره ، ومن ثم فهو يقول: " إن مما يجعل البشر إنسانيين هو جين، لأن جين هي محبة الحب ، وهي المبدأ المطلق للفعل الإنساني ، والكائن البشري الحق لا ينحرف عن طريق الجين قط ، ومن هنا كانت الحياة من دونها غير جديرة بأن تعاش " [٢]

(١) المرجع السابق. ص٥٤،٥٣.

(٢) جون كولر. الفكر الشرقي القديم . مرجع سابق . ص٣٥١.

المبحث الثالث: الالتزام بالطقوس والشعائر.

لقد كان كونفشيوس حكيما أخلاقيا ينأى بنفسه عن كل مباحث الميتافيزيقا " ومن المؤكد أنه لم يكن أصلا رسولا دينيا أو معلما دينيا "[١] لذا فهو لم يتحدث عن المسائل الدينية ، وما من شك في أن تلامذته " كانوا يتمنون أن يحل لهم معلمهم مشاكل السماوات ويطلعهم على أسرارها ويقص علينا كتاب ليا . تزه وهو مغتبط قصة غلمان الشوارع الذين أخذوا يسخرون من كونفشيوس حين أقر لهم بعجزه عن هذا السؤال السهل وهو: هل الشمس أقرب إلى الأرض في الصباح حين تبدو أكبر ما تكون أو في منتصف النهار حين تشتد حرارتها "[٢] ولكن كونفشيوس كان يرى أنه لم يصل بعد إلى فهم ما حوله لكي يبحث فيما لا يراه ولكن كل هذا لا يعني أنه كان يرفض الدين وأداء الطقوس بقدر ما يعني أنه كان يقف منه موقفا حياديا ، على الأقل في الظاهر.

يتحدث بعض الباحثين عن لا أدرية كونفشيوس وأنه لم يك ذا موقف واضح وإن كان الباحث يعتقد أن كونفشيوس بموقفه هذا الذي اتخذه قد أظهر موقفا واضحا له من الدين برفضه الخوض فيه والحديث عن مسائله ، فكونفشيوس لا يهتم إلا بالإنسان ويحاول الوصول به إلى الكمال من خلال تخلقه بالمثل العليا المستمدة من التفكير الإنساني والتزام العلوم والفنون الراقية مثل الموسيقى والشعر ، فهو يرفض الدين ويرفض غير المرئي باعتباره له وجود حقيقي.

ربما يقبل كونفشيوس غير المرئي المعنوي مثل الحب والحق إلى غير ذلك ولكنه لا يقبل بفكرة الإله الحقيقي الوجود " صحيح أن ذكر " السماء "

---

(١) د/ مدحت محمد نظيف . الألوهية في الفكر الإنساني القديم . مرجع سابق . ص١٣٨.

(٢) Giles,H. A.,History of Chinese Literature.69. نقلا عن قصة الحضارة. مرجع سابق. ص٥٤.

والصلاة كان يرد على لسانه أحيانا ، وأنه كان ينصح أتباعه بألا يغفلوا عن الطقوس والمراسم التقليدية في عبادة الأسلاف والقرابين القومية "[١] ولكن ذلك التنبيه منه على تلامذته لا يعدو أن يكون لفتا لهم إلى قوة داخلية أخلاقية تعني المثل العليا.

ويمكن رد ذلك التنبيه على القيام بالطقوس الدينية التقليدية إلى مبدأ نادى به في الانسجام والتناغم بين الرجل المثالي وبين الوجود ، فكونفشيوس لم يكن ليصطدم مع ثوابت مجتمعه ولكنه يشترك معهم في تكامل ليحصل على الوحدة المنشودة كما يقول: " إني أبحث عن الوحدة ، الوحدة الشاملة"[٢] ، فالحقيقة الواحدة التي آمن بها كونفشيوس هي الإنسان فقط وطريقه نحو الكمال ، ولذا أمضى حياته كلها في سبيل هذه الفكرة.

ولكن كونفشيوس على ما كان موقفه تجاه الدين غير أنه جعل الفضيلة الثانية هي الالتزام بـ " القانون العرفي "[٣] الذي يتمثل فيما يعتقده ويؤديه المجتمع من طقوس تجاه أرواح القدامى ، وذلك لأن " لي " Li هو ذلك القانون و " المبدأ الذي جسد من خلاله الملوك القدامى شرائع السماء ونظموا التعبير عن الطبيعة الإنسانية ، ومن هنا فإن من يحرز " لي " يعيش ومن يفقدها يموت "[٤] ويبدو من خلال النظر إلى هذه الفضيلة أن كونفشيوس إنما يحافظ على علاقة تلامذته بالأرواح ليحفظ لهم علاقتهم بالإنسان الموجود بالفعل ، فأرواح القدماء وإقامة الطقوس لها والتي هي

(١) Wilhelm, Short History. نقلا عن: ول ديورنت. قصة . مرجع سابق. ص٥٣.

(٢) Giles, H. A., History of Chinese Literature. نقلا عن: ول ديورنت . قصة الحضارة. مرجع سابق. . ج٤. ص٥٤

(٣) جمال المرزوقي .الفكر الشرقي القديم . دار الأوقاف العربية . القاهرة . ٢٠٠١. ص ٣٥١.

(٤) جون كولر. الفكر الشرقي القديم. مرجع سابق . ص٣٥١.

أساس عبادة الصينيين لا تطلب لذاتها عند كونفشيوس ولكنها تطلب لأنها وسيلة لتحقيق الوحدة مع الناس وإمكان تقديم

الخير لهم ، ولقد " سأله فارشي عن " ماهية الحكمة " قال له: إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس ، وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها أمكن أن تسمي هذه حكمة "[١]

فالأخلاق الكونفشيوسية تعتمد الالتزام بهذه القوانين فضيلة أساسية من الفضائل الأربع إلا أنها تدعو إلى ممارسة هذه الطقوس بغير تعمق في معناها أو نظر إلى حقيقتها ، فهي شعائر تمارس ليشعر الإنسان باتحاده مع الوجود من حوله ليس أكثر ، ولكن الانقطاع عنها يمثل الهلاك والضياع.

" والمعنى الأصلي لعبارة << لي ، Li >> هو أن تضحي ، ولا يزال هذا معناها في الصينية الحديثة "[٢] ولقد استعملها كنفشيوس كدلالة على انه لا يمكنك أن تضحي للأجداد ما لم تستطع التضحية من أجل الناس المحيطين بك.

(١) legge,101,VI,20 نقلا عن: قصة الحضارة. مرجع سابق . ص ٥٣.

(٢) هـ . ج . كريل . الفكر الصيني من كنفشيوس إلى ماوتسي تونج . ص ٤٧.

المبحث الرابع: احترام العائلة.

يبدو أن هذه الفضيلة جزء من الفضيلة " لي " أو أنها صورة أخرى لها، فحين تعد الفضيلة الثانية في الأخلاق الكونفشيوسية هي احترام القدماء والالتزام برؤيتهم عن السماء " لي " نجد أن الفضيلة الثالثة هي احترام العائلة الموجودة وتوقيرها.

وتعمل فضيلة " هسياو " Hsiao توقير العائلة على تنمية " جين " وغرس المحبة "[١] فالحكمة تبدأ من البيت "[٢] ويجب أن ينشأ الطفل على هذا المبدأ الذي يقوي علاقته بمن حوله ليكون بعد ذلك مثاليا ، ولا يمكن للرجل أن يصبح مثاليا بغير هذا الاحترام في الأخلاق الكونفشيوسية ، ولقد سأل تزه . لو كونفشيوس عن: ما الذي يكون الرجل الأعلى؟ فأجاب: " أن يثقف نفسه بعناية ممزوجة بالاحترام " [٣]ولا شك أن البيئة الاجتماعية هي التي تشكل هذا الرجل ليكون الأعلى فلابد أن يتخلق الرجل المثالي بال " هسياو " لكي يشرف أبويه وعائلته فإن لم يستطع فعلى الأقل يجب ألا يجلب العار لهما.

وتعتبر هذه الفضيلة هي الأصل العملي في الأخلاق الكونفشيوسية والذي تتمثل من خلاله البذور الولى للبرجماتية ، فالرجل الأعلى حين يحب الحب ويتصرف على أساسه ، ثم يلتزم بكل ما يلتزم به المجتمع من حوله فلا يتصادم معه فلا يبقى إلا أن يتصرف على منهج محدد وهذا المنهج المحدد عند كونفشيوس هو اعتبار الرجل الأعلى بعائلته واحترامه لها.

وتتدرج العائلة التي يجب أن يحترمها الإنسان من أسرته فعائلته ومن ثم مجتمعه ، فلا يفعل الإنسان ما هو قبيح في أعينهم أو ما يمكن أن يجلب له العقاب ولعائلته العار.

(١) د/ هالة أبو الفتوح. فلسفة الأخلاق السياسية. مرجع سابق. ص ٧٥ .

(٢) ول ديورنت. قصة الحضارة . ص٥٦.

(٣) المرجع السابق.

المبحث الخامس: الاستعداد والاستقامة.

كما أن " الهسياو " لازم لتطوير " الجين " كذلك اعتبر كونفشيوس فضيلة رابعة ضرورية لتطور محبة الحب هذه ، ولقد شدد عليها كونفشيوس باعتبار أن الاستقامة أو الاستعداد الخلقي " يي " Yi هي أساس الترقي للوصول إلى الكمال ، وإذا لم يكن ذلك الاستعداد فلا سبيل إلى الترقي ، فهو يقول: إذا لم يكن من عادة المرء أن يقول: ماذا أرى في هذا؟ فإني لا أستطيع أن أفعل له شيئا " فهذا السؤال دليل على استعداده لتلقي الفضيلة الكاملة ولذلك فإن كونفشيوس لا يفتح "باب الحق لمن لا يحرص على معرفته"(١) وكذلك لا يعين "من لا يعني بالإفصاح عما يكنه في صدره"(٢) لأن الحكمة لا تعطى بالتلقي كاملة ولكن الاستعداد والاستقامة الخلقية عند شخص هي التي تجعله قادرا على فهم أكثر الحكمة عن طريق بعض الحكمة التي يتلقاها تعليما ، ولقد تحدث كونفشيوس عن هذا الاستعداد بقوله: " إذا ما عرضت ركنا من موضوع ما على إنسان ، ولم يستطع مما عرضته عليه أن يعرف الثلاثة أركان الباقية فإني لا أعيد عليه درسي "(٣) ولكن ذلك لا يعني أن هناك بعض الناس لا يمكن أن يستفيدوا من درسه ، فلابد من إفادة ما تتحصل لمن يدرس فليس من السهل " أن نجد إنسانا واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح إنسانا صالحا "(٤) ولكن من يستطيع أن يواصل الدرس إن لم تكن فيه فضيلة الاستعداد والاستقامة ، وإذا كان كونفشيوس يقول عن ذلك الاستعداد في نفسه " قد يكون في كفر من عشر أسر رجل في مثل نبلي وإخلاصي ، ولكنه لن يكون مولعا بالعلم

(١) قصة الحضارة. مرجع سابق. ص٤١.

(٢) المرجع السابق. ص٤٢.

(٣) Confucius, Analects, VII, xiii نقلا عن: المرجع السابق. ص ٤٢

(٤) Confucius, Analects ,VII ,xii نقلا عن: المرجع السابق. ص ٤٢.

مثلي"[١] فإلى هذه الدرجة وصل استعداد وحب وكونفشيوس ورغم ذلك يقول: " ولكن الرجل الأعلى الذي لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد "[٢]

لا يمكن للإنسان أن يصل إلى الحكمة والرقي بغير تعلم وهذا التعلم لابد لكي يكون من وجود استعداد ذاتي يحث الإنسان على الاستقامة ويطرح دائما الأسئلة على نفسه ليقوم طريقه أم إذا " لم يسائل المرء نفسه باستمرار : ما الشيء الصواب الذي يؤديه ؟ فإنني [كنفشيوس] لا أعرف في الحقيقة ما الذي سيلم به "[٣] .

(١) legge, Life, V, xxvii ,نقلا عن: المرجع السابق . ص ٤٤.

(٢) Legge, Life,VII,xxxii نقلا عن: قصة الحضارة. ص٤٤.

(٣) المقتطفات الأدبية : ١٥/١٥ ، نقلا عن: هـ . ج . كريل ، الفكر الصيني ، مرجع سابق . ص ٦٦.

تعقيب:

لقد نظر كنفشيوس إلى الأخلاق على أنها الأساس الذي يجب على كل مجتمع أن يقوم عليه ، ونظر إليها على أنها المبحث الحقيقي للمعرفة الحقة.

اهتم كنفشيوس بالأخلاق وترك ما عداها من إشكاليات لأن ليس كما قد يعتقد أنه ينظر إلى الجزئيات والظواهر فقط ، لكن لأنه إنما يؤمن بالكلي؛ فهو ينادي بمحبة الحب لذاته ، ويطلب الوحدة الشاملة ليتوافق مع ذلك الانسجام بين جزئيات الطبيعة.

وقد تبين أن كنفشيوس لا يلتفت أصلا إلى الاختلاف الظاهري بل يعد نوعا من التنوع اللازم لحدوث التكامل فلا يعترض على طقوس مجتمعه وعبادتهم وإنما يدعوة إلى ممارسة هذه الطقوس بإخلاص ليس لأنه يؤمن بجدواها ، ولكن لأنه يؤمن بوحدة الإنسان مع أفراد مجتمعه سواء كانوا سابقين له وهم الأرواح أو معاصرين له وهم العائلة.

كما يمكن أن نلخص مذهب كنفشيوس في الفضيلة بأنه يدعو إلى الحب بين الناس ليس لما قد يقدمه بعضهم البعض وإنما لأن الحب غاية يجب أن تطلب لذاتها.

وكنفشيوس ينادي بأن يتعلم الناس بعد أن يختبروا لمعرفة استعدادهم لتلقي نوعية معينة من العلوم وذلك . على حد قوله . لتزول الفوارق بين الطبقات ، حتى يتمكن المعلم من العثور على رجل يملك الاستعداد ليكون الرجل الأعلى.

من الواضح أن كنفشيوس قد فكر وجرب كثيرا كي يصل إلى ما آمن نادى به ، ولا ينكر تأثره ببيئة المجتمع الصيني إيجابا و سلبا ، ولكن إضافته الأخلاقية ، ونمطه العملي ، ونزعته الإنسانية كونوا مذهبا كان من القوة بحيث أثر فيمن حوله من مؤيديه ومعارضيه ، وترك مثالا راسخا ظلت الأجيال تتوارثه من بعده.

الفصل الثاني

الاتجاه الخلقي عند كونفشيوس

لقد شكل الفكر الكنفشيوسي مدرسة خاصة ليست كتلك التي عهدتها الحضارة الصينية ، وقد كان الناس من جميع الطبقات يسعون ليحصلوا على وظيفة هي الطريق الوحيد . تقريبا . " للوصول إلى الثروة الاقتصادية والمكانة الاجتماعية والسلطة السياسية "[١] وذلك عن طريق إجراء اختبارات ، فكانت المدارس لمساعدة مختلف الطبقات على اجتياز الامتحان.

لم يكن كنفشيوس ممن يهتمون بذلك فحسب بل كان يهتم بالتربية بمعنى: " التطور والتثقيف عقليا وأخلاقيا لتوسيع المدارك وتقويتها وتنظيمها[٢]"

ولقد تميز الأسلوب الكنفشيوسي غير التقليدي عن غيره فليست العبرة بأن ينال المنصب وإنما العبرة أن يصبح كفؤا لذلك المنصب ، ومن هنا كان للاتجاه الأخلاقي المتأصل في كل جوانب المعرفة الكنفشيوسية أسس أقيم عليها هي تلك الأسس التي تعهد كنفشيوس غرسها للبناء عليها في نفوس تلامذته ومن قبلهم في نفسه.

ومن دراسة هذه الأسس يمكننا تحديد الاتجاه الخلقي الذي سار فيه كنفشيوس ليزرع فكرته في نفوس تلاميذه ومن ثم ليكتب لها كل ذلك التأثير عبر التاريخ والذي تمتد فروعه إلى يومنا هذا في أمة تعد من أعرق الأمم الإنسانية.

---

(١) هـ . ج . كريل ، الفكر الصيني ، مرجع سابق . ص١٤ .

(٢) المرجع السابق . ص ٤٥ .

المبحث الأول: الأساس المعرفي للأخلاق

المعرفة الفطرية المبنية على الانسجام بين الإنسان والوجود هي المعرفة الحقة عند كونفشيوس ، وهذه المعرفة يولد الإنسان بها ، ولكنها قد تفقد من بعض المولودين إلا أنها مما يمكن أن تكتسب بالتعلم والحرص على ممارستها ومن ثم يمكن للإنسان أن يعدل من وضعه إذا كان قد ولد غير راق بفطرته ، فيعدل من فطرته تلك عن طريق تعديل معرفته " وكلما زادت معارفه كلما زادت مكانته "[١]

ولقد بنى كونفشيوس أخلاقه على أساس معرفي يقتضي البحث في ماهية الفرد لأنه الأساس لكل فعل سواء كان على نطاق الأسرة أو المجتمع، وتحدث عن النفس لأن تلك المعرفة التي يرمي إليها تتعلق بالنفس فلابد من معرفة النفس.

ويقصد كونفشيوس بمعرفة النفس النفس الكلية لا نفوس الناس المختلفة " لأن كونفشيوس ينظر إلى النفس الأخلاقية والاجتماعية على أنها هي المطلقة "[٢] وربما كانت هي نفسها الطاو أو الطريق ، بل إن الباحث يرجح أن تكون تلك النفس المطلقة هي السماء التي طالما تحدث عنها كونفشيوس دون تفصيل ، فالنفس المطلقة هي الخطة التي يسير الكون كله على منهجها ، ليست نفسا مفارقة للكون ولكنها الأولى التي كان منها ين ويانج فقد كان يعتقد أن هذا الانسجام في الكون " تنفيذا لإرادة إلهية مرسوم خطتها في منهج السماء "[٣]

(١) مجموعة من المؤلفين . تاريخ تطور الفكر الصيني . ت: عبد العزيز حمدي عبد العزيز. المجلس الأعلى للثقافة. ص ٥٧.

(٢) جون كولر . الفكر الشرقي القديم . ص٣٦١.

(٣) د/ مدحت محمد نظيف . الألوهية في الفكر الإنساني القديم . ص١٤٠.

فكونفشيوس يريد معرفة النفس ، وهو لا يتحدث عن الأرواح وفي نفس الوقت يأمر باحترامها " إذا حرصت كل الحرص على أداء واجبك نحو الناس ، وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية

مع احترامك إياها أمكن أن تسمي هذه حكمة "[١] وكذلك فعل مع السماء ، أفلا يكون ذلك دليل على أنه يقصد تلك النفس المطلقة بمعنى الوجود غير الطبيعي ويقدمها للناس بما تعارفوا عليه بينهم دون توصيفها لهم، ويشير إلى وجوب معرفة النفس.

كونفشيوس رغم أنه أقر مبدأ الثورة حين يقول: " فإذا أمر الوالد ابنه أمرا خطأ وجب عليه أن يقاومه ، وعلى الوزير أن قاوم أمر سيده الأعلى في مثل هذه الحال "[٢] فإنه أيضا يكره الفوضى واختلاط الحابل بالنابل والتبجح " فالمجتمع يقوم على إطاعة الأبناء آباءهم والزوجة زوجها ، فإذا ذهبت الطاعة حلت محلها الفوضى "[٣] ولهذا لا يقدم كونفشيوس على إعلان رأي يؤدي بالمجتمع إلى النزاع الفوضى ولكنه يساير المجتمع فيما يمكن مسايرته فيه فهو الذي يشير " بألا تدرس الموضوعات العليا لذي المواهب الوسطى، أما الموسيقى فيجب أن تعلم للناس أجمعين "[٤] ، ولا يعد ذلك من قبيل الكذب الذي طالما رفضه كونفشيوس لأنه يفقد الثقة بين الرجل الأعلى والمجتمع ولكنها المداراة ومخاطبة العقول بما تحمله.

وفي سبيل معرفة هذه النفس فقد أعطى كونفشيوس تصورا لتلك الأسس التي تقوم عليها ومن ثم تقوم بها الأخلاق ، وهذه الأسس هي:

(١) ول ديورنت. قصة الحضارة. ص٥٣.
(٢) المرجع السابق. ص٦٠.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق. ص٦٢.

- **الأخلاق المطلقة:**

الأخلاق عند كونفشيوس كلية وضرورية وإنما يبحث الإنسان في طريقه إلى التعلم عن المعيار الذي يقوده إلى هذه الكليات دون خطأ ، وما أشبه هذه النظرة بوجهة النظر الإغريقية التي نادى بها سقراط وتلامذته من بعده حتى كان أرسطو واضع المنطق كآلة للعصمة من الخطأ عند البحث عن الحقيقة الكلية.

إذا كانت الأخلاق ضرورية فإن الناس في مساواة عند البحث عنها وإدراكها ويتفاضلون فيما بينهم بمعاييرهم الحاكمة ورغباتهم المتحكمة ، أما الأخلاق فهي مطلقة.

- **التعلم والاكتساب للخير:**

لقد افترض كونفشيوس أنه قد يولد إنسان بغير تلك الفطرة التي هي الكمال والخير ولكنه بالتعلم والممارسة قد يكتسبها فيرتقي وبالتالي فإن الإنسان قد يولد ليس خيرا ولا شريرا بالفطرة.

وقد ذكر معبرا عن هذا القول برفض كونفشيوس فكرة أن يكون الإنسان خيرا أو شريرا بالفطرة[١]بصورة قطعية كتاب " لون بو" أو كتاب المحاورات " المعروف عند قراء الانكليزية باسم " مجموعة الشذرات " أي شذرات كونفشيوس ، كما سماه " لج " Legge "[٢] وهذا الكتاب أحد الشواءات (كتب الفلاسفة) الأربع التي لم يخطها كونفشيوس بيده ولكنها آراؤه " كما تذكرها أتباعه "[٣] ، وما دعى الباحث إلى التشكيك في هذا القطع هو إيمان كونفشيوس نفسه بوحدة الوجود وإيمانه بذلك الانسجام الذي

(١) نقلت هذا القطع بالرفض وأيدته . من كتاب Confucius, Analects,2:7 . د/ هالة أبو الفتوح. فلسفة الأخلاق والسياسة. ص٦٢.

(٢) ول ديورنت. قصة الحضارة. ص٥٠ ، ٥١.

(٣) المرجع السابق. ص٥١.

يربط جزئيات الطبيعة ، نعم " لقد أكد أهمية نضال الفرد تأكيدا شديدا ، ولكن يبدو أنه كان يأمل أن تقوم السماء ، كما قال: " بمساعدة اولئك الذين يساعدون أنفسهم ". "[١] هذه السماء التي يفهم معناها عنده على أنها تدل " على قوة أخلاقية في الكون ندركها إدراكا غامضا "[٢] أو على أنها . كما ذهب الباحث قبل قليل . الطاو أو النفس المطلقة ولا يمكن أن يقول كونفشيوس بذلك وينفي وجود فطرة أولى للإنسان ، ولكنه . كما سبقت الإشارة . يقول باحتمال ميلاد فرد بغير تلك الفطرة مما يجعله محتاجا للتعلم والاكتساب.

- **العقل والوجدان:**

يؤمن كونفشيوس بوجود اتجاهين باطنيين في الإنسان ، أحدهما الاتجاه العقلي ، والآخر الاتجاه الوجداني ، وبين هذين الاتجاهين نوع من التجانس والانسجام يولد بهما الإنسان ، ولكنه ما يلبث أن يغلب أحدهما على الآخر بفعل الظروف البيئية مما ينشأ عنه عدم التوازن الداخلي في الفرد وبالتالي فهو يؤثر سلبا على المجتمع بشيوع الاضطرابات الداخلية ولا تؤمن معها الفوضى العارمة.

ولتلافي ذلك الخلل يجب أن يحرص الرجل الأعلى على الموازنة بينهما بالتفكير الدائم فيما هو صواب فحين سئل عن " كلمة واحدة يستطيع الإنسان أن يتخذها قاعدة يسير عليها طوال حياته ؟ فأجاب المعلم: أليست هذه الكلمة هي المبادلة "[٣] أن يتعامل مع كل شيء بما هو له أهل ، وألا يضع شيئا مكان آخر ولكي يحدث هذا " يضع الرجل العلى نصب عينيه تسعة أمور لا ينفك يقلبها في فكره. فأما من حيث عيناه فهو يحرص على

(١) د/ مدحت محمد نظيف. الألوهية في الفكر الإنساني القديم. ص١٤٠.
(٢) المرجع السابق.
(٣) ول ديورنت. قصة الحضارة. ص٥٨.

أن يرى بوضوح ... ؛ وأما من حيث وجهه فهو يحرص على أن يكون بشوشا ظريفا ؛ وأما من حيث سلوكه فهو يحرص على أن يكون وقورا ؛ وفي حديثه يحرص على أن يكون مخلصا ؛ وفي تصريف شئون عمله يحرص على أن يبذل فيه عنايته ، وأن يبعث الاحترام فيمن معه ؛ وفي الأمور التي يشك فيها يحرص على أن يسأل غيره من الناس ؛ وإذا غضب فكر فيما قد يجره عليه غضبه من الصعاب ؛ وإذا لاحت له المكاسب فكر في العدالة والاستقامة "[١]

- **الرجل الأعلى معيار أخلاقي:**

لاشك أنه بعد التدرج في التعلم والممارسة من الممكن أن يصل الإنسان إلى درجة الرجل الأعلى فمن هنا يصبح معيارا لنفسه وللآخرين الذين لم يصلوا بعد يقاس به الأخلاق ، فقد أصبح ذلك " الفرد الذي يريد أن يعيش وفقا لقوام الإنسانية الصحيحة بدون عقاب ، والذي يكره أن يعيش في تناقض مع هذه القواعد [ومن ثم] يمكنه أن يتخذ من نفسه مقياسا للأخلاق"[٢] لأنه قد صار إلى حالة الإلزام الخلقي الكامل هذا الإلزام الذي يقود إلى فكرة الإرادة الخيرة.

(١) المرجع السابق. ص٥٩.

(٢) د/ مدحت محمد نظيف. الألوهية في الفكر الإنساني القديم. مرجع سابق. ص١٣٩.

المبحث الثاني: الوحدة ومحبة الحب.

لقد تحدث كونفشيوس عن الطريق الذي يجب أن يسلكه الرجل الباحث عن الكمال من وجهة نظر صينية مفادها القول بوحدة الوجود ، فاتخذ كونفشيوس من الوحدة مطلبا للكمال ولكنه أضاف نظرته الخاصة والتي تهدف إلى القول بأن الوجود لم يك مجرد ظهور تصادف حدوثه ، ولكن الوجود يحتوي على جزئياته الطبيعية وهي " مشتملة على الانسجام التام الذي هو سر جمالها وتقدمها وصلاحيتها للوجود "[١] وأن الإنسان لابد أن يعمل على وفق ذلك الانسجام الكوني بحيث لا ينحرف عن الطريق " الطاو " Tao لقد " غير كونفشيسوس من معنى ذلك الاصطلاح نوعا ما حيث كان يعنى به طريق السلوك سواء كان صالحا أم طالحا ، أو طريق الحكمة عند لاوتس "[٢] ولقد عبر مفهوم الطاو عند " الطاوية " عن موجد الموجودات أي السماء أو الأصل المتفرع عنه الموجب أو الضوء " يانج " Yong ، والسالب أو الظل " ين " Yin " وهو المفهوم الذي يتفق مع المفهوم العام للطاو عند الصينيين "[٣].

ولكن ذلك المفهوم عند كونفشيوس قد تغير ليصبح الإيمان بالمبادئ والمثل العليا للإنسانية فالطاو عند كونفشيوس لم تكن"مطلقا كونيا "[٤] ، ولكنه يدل على الوسطية والسبيل الذي لا يختلف الناس في صلاحه فـ"الرجل الأعلى يلتزم الطريق الوسط في كل شيء"[٥] ، إنه الطريق الذي يجب أن يسلكه الإنسان ليتحد مع الوجود ويتآلف معه في انسجام لا يكره انحراف.

---

(١) انظر: المرجع السابق. ص١٤١ ، وهامشها.

(٢) انظر: لاوتسو. الطاو. ت: محسن فرجاني. ص٢٧.

(٣) د/ مدحت محمد نظيف. الألوهية في الفكر الإنساني القديم. مرجع سابق. ص ١٤١.

(٤) ول ديورنت. مرجع سابق. ج٤.ص٥٦

(٥) المرجع السابق. ص٥٨.

ولهذه الوسطية معيار عند كونفشيوس يقيس الإنسان به فعله وقوله فـ " الرجل الأعلى يتحرك بحيث تكون حركاته في جميع الأجيال طريقا عاما ، ويكون سلوكه بحيث تتخذه جميع الأجيال قانونا عاما ، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه في جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ "[١] وهو " يحرص على ألا يكون فيما يقوله شيء غير صحيح "[٢]

فالفعل الإنساني قيمته عند كونفشيوس يخالف الاتجاه الغائي " وهو الذي يستمد القيمة الخلقية للفعل من نتيجته الحاصلة عنه ، والتي هي سابقة في ذهن الشخص على وجود الفعل لكنها متأخرة عن الفعل في الوقوع ، ويتدرج تحت هذا الاتجاه أصحاب مذهب اللذة كالسوفسطائيين والقورينائيين والأبيقوريين وما تفرع عن هذه المذاهب من آراء "[٣] ، ولكنه يتوافق مع اتجاه الدوافع والبواعث الذي يجعل قيمة الفعل الخلقي في ذاته وليست خارجة عنه.

وتلك القيمة الذاتية للفعل التي عبر عنها سقراط بمعرفة الحق والخير والجمال[٤]، وعبر عنها أفلاطون بنظريته الشهيرة في المثل[٥]، كما عبر عنها أرسطو في مذهبه الغائي بالخير الذي هو طريق السعادة[٦]، فإن كونفشيوس عبر عنها بالطريق " الطاو " الإنساني الذي يحوي المثل العليا والطاو عند كونفشيوس وسطية بين كل شيء ، ووحدة بين الإنسان والوجود، فالإنسان يجب أن يحب نفسه لذا فهو يكره ألا يذكر بعد الموت ، وكذلك

(١) المرجع السابق.ص٥٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) د/ محمد السيد الجليند. قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي. ص١٦. ط٢. مطبعة الحلبي.١٩٨١م.

(٤) انظر: د/ توفيق الطويل. الفلسفة الخلقية ، وانظر أيضا:د/ حربي عباس عطيتو. ملامح الفكر الفلسفي عند اليونان. دار المعرفة الجامعية.

(٥) المرجع السابق.

(٦) انظر: أرسطو. الأخلاق النيقوماخية. ص١٦٨.

يحب عائلته لذا فهو يكره أن يجلب العار لهم بفعله غير اللائق ، وبالتالي يجب أن يحب الآخرين بمثل ما أحب نفسه ، وهنا لن يخطئ في أفعاله التي يريد بها النفع ودفع الضرر وكلمته في ذلك " حب للآخرين ما تحبه لنفسك[١] " وبهذا الحب يتحقق " جين " المحبة ومن ثم يتحقق الخير والصلاح والسعادة للجميع لحدوث الانسجام.

(١) تسي تشينخ. إنجيل الحكمة الطاوية في الصين. لاوتسو: الطاو. ص١٦٤

المبحث الثالث: علاقة الرجل الأعلى بالمجتمع.

لقد عاش كونفشيوس " يأمل أن تتاح له فرصة يلي فيها من أمر الصين ولاية بحيث يتزعم حركة الإصلاح والسلم "[١] ، ولكنه في نفس الوقت رفض عرض دوق وي أن يوليه رياسة حكومته ؛ " لأنه لم تعجبه مبادئ الدوق "[٢]

وهو الذي قبل أن " يكون كبير القضاة "[٣] في مدينة جونج . دو بولاية لو ، ولكنه استقال " من منصبه وهو كاره ، وغادر لو "[٤] حينما انغمس دوق لو في الملذات مغفلا عن نصيحة كونفشيوس بأن يكون قدوة صالحة ؛ لأنه المبدأ الأول من مبادئ الحكم الصالح، فقال: تزه . لو له:" أيها المعلم لقد آن لك أن ترحل "[٥] ، لقد كان مبدؤه: أن " الحكومة الظالمة أشد وحشية من النمر " [٦] ولا يمكن أن تكون الحكومة صالحة إلا إذا وضع كل شيء في موضعه وكذلك كل شخص بحيث"يكون الأمير أميرا، والوزير وزيرا، والأب أبا، والابن ابنا"[٧] ويبدو أن ذلك الكمال ووضع كل شيء في موضعه قد أصبح في آخر حياة كونفشيوس مجرد وهم لا يمكن تحقيقه أو على الأقل لم يجده كونفشيوس مطلقا في حياته

حيث قال: " إنه لم ير قط إنسانا يحب الفضيلة بقدر ما يحب الجمال[٨] "

(١) ول ديورنت. مرجع سابق. ص٤٧.
(٢) Legge,83 نقلا عن قصة الحضارة. ص٤٧.
(٣) ول ديورنت. قصة الحضارة. ص٤٦.
(٤) المرجع السابق. ص٤٧.
(٥) المرجع السابق.ص٤٧.
(٦) Legge, Life, XII, xi نقلا عن: قصة الحضارة. ص٤٥.
(٧) ول ديورنت. قصة الحضارة. ص٤٥.
(٨) Legge, Life ,IX, xvii نقلا عن: قصة الحضارة. ص٤٧.

يبدو من كل ذلك أن كونفشيوس كان يتعامل مع المجتمع من جهتيه على السواء ، فلا هو من هؤلاء المربين الذين يؤمنون بوجوب التغيير من القاعدة فقط ، ولا هو من الثوار الذين يؤمنون بوجوب التغيير من القمة فقط، ولكنه يتعامل مع المجتمع بطرفيه ؛ فالفرد الصالح يتعهد بالتربية من صغره ليكون صالحا وليكون كفؤا لما قد يتقلده من مناصب فهو يقول: " لست أبالي مطلقا إذا لم أشغل منصبا كبيرا ، وإنما الذي أعني به أن أجعل نفسي خليقا بذلك المنصب الكبير ، وليس يهمني أن الناس لا يعرفونني ؛ ولكنني أعمل على أن أكون خليقا بأن يعرفني الناس "[١] فهو الرجل الذي يسعى إلى الكمال المنشود ليحقق الانسجام والتواؤم مع ما يجب أن يسعي إليه ليتقلده من مناصب ، " فالرجل الأعلى يحزنه نقص كفايته ولا يحزنه... ألا يعرفه الناس " وهو مع هذا " يكره أن يفكر في ألا يذكر اسمه بعد الموت"[٢] ثم يقبل ذلك الرجل الأعلى أي منصب يرى أنه يمكن أن يحقق ذلك الصلاح المنشود.

والمنصب الذي يتقلده الرجل الأعلى لا ينبغي أن يطلب لذاته وإنما يطلب لما وراءه من خير للناس فإذا شعر الحكيم بأن الإصلاح بات صعبا في منصبه تركه على الفور ، لقد كان كل ما يهم كونفشيوس في الجانب السياسي هو المجتمع وعلاقة الرجل الأعلى به ، " فنزعة كونفشيوس نزعة اجتماعية أخلاقية بحتة وكانت له عدة مواقف تبرز نزعته نحو المحافظة على الجانب السياسي من هذه المواقف "[٣]

ويلاحظ أن كونفشيوس حينما تناول الأوضاع الاجتماعية في الصين في محاولة لوضع حد ذلك الفساد المتفشي في أرجاء البلاد كان يتناول هذه الجوانب من وجهة أخلاقية حيث يجب على الإنسان الفرد أن يتحلى

(١) Legge, Life, IV, xiv نقلاعن: قصة الحضارة . ص ٤٥ .

(٢) Doctrine of the Mean, XV, xviii–xx نقلا عن قصة الحضارة. ص٥٧.

(٣) تاريخ تطور الفكر الصيني ، مجموعة. ت: عبد العزيز حمدي عبد العزيز. المجلس الأعلى للثقافة. ط أولى.٢٠٠١. ص٥١،٥٠

بالفضيلة أولا وقد " سعى إلى تحديده لأسمى القيم الأخلاقية التي لابد أن تتوفر لدى كل إنسان . وهذه القيم تسمى بواجبات الإنسان العشر."(١)

فإذا ما كان ذلك الفرد حاكما فإن الفضائل الأساسية التي سبق الحديث عنها في الفصل الأول يجب أن تظهر فيه جلية واضحة ، " فيحافظ الحاكم على نظام الدولة القديم كتطبيق سياسي للفضيلة " لي " Li ، كما أن الحاكم يتصرف في شئون الحكم عن طريق أكفأ العناصر الموجودة في الدولة وهو المبدأ الذي جعله كونفشيوس أساس الحكومة الصالحة ولا يخفى أنه تطبيق سياسي للفضيلة " يي " Yi ليصبح كل متصرف في شأن من شئون الحكم مستعدا له فتحدث الاستقامة الاجتماعية ، ثم يجب على الحاكم أن يكون مستعينا في كل أموره بالفضيلة لأنه يريد الصلاح ولا يطلب سواه كي يذكر دائما بالخير دون أن يجلب فعله المشين العار لاسمه وعائلته إلى الأبد وذلك تطبيق سياسي للفضيلة " هسياو " Hsiao ، وفي ذلك كله تطبيق لـ " جين " Jen "(٢).

إن كونفشيوس حين يتحدث عن قوانين الحكومة وقواعد المجتمع ونظمه لا يتحدث عن قوانين مكتوبة تتلى عند تنفيذ الحكم ، ولكنه يتحدث عن قوانين للضمير الفردي ومن ثم للضمير العام ، لا يقصد كونفشيوس أن يمتنع الناس عن الشر لأن فاعله يعاقب ، ولكنهم يمتنعون لأن فاعل الشري سيواجه بعاصفة داخلية من نفسه وخارجية من مجتمعة تلقي عليه وعلى ذكره من بعده وابل من الخزي والعار ، فترجع عند كونفشيوس " مشكلات الشعب التي ينتج عنها إفساد الدولة إلى السلطة الحاكمة "(٣) التي تسن القوانين نظريا ولكنها لا تستمدها من الفضيلة التي يجب أن تنشئ الناس عليها ، ويبين ذلك الموقف " ما أبداه كونفشيوس من اعتراض عندما علم أن

(١) د/ هالة أبو الفتوح. فلسفة الأخلاق السياسية مرجع سابق. . ص ١٤١.

(٢) انظر معناه: د/ إمام عبد الفتاح إمام. الأخلاق والسياسة. ص١٤٤،١٤٣،المجلس الأعلى للثقافة.٢٠٠١م.

(٣) جمال المرزوقي. الفكر الشرقي القديم. ص٢٤٥. دار الأوقاف العربية. القاهرة. ط أولى.٢٠٠١م.

مملكة جين قد سطرت قانونها الجنائي فوق طنجرة برونزية ليتمكن الشعب من قراءة القانون ومعرفة العقوبة ليكون الردع "[١] هكذا يجب أن تكون القوانين.

ولكن كونفشيوس لم يتمكن أبدا من أن يصنع ذلك المجتمع ، ولا أن يجد ذلك الأمير الذي شاركه أفلاطون في البحث الدائم عنه فيما بعد ، وقضى حياته في النهاية " محطم الآمال ، قال: لم ينهض حاكم ذكي الفؤاد ليتخذني أستاذا له ، وها قد حانت منيتي "[٢] رغم أن أفكاره كانت أفكارا عملية لا نظرية في أغلبها.

لم يعرف عن كنفشيوس قط أنه ألقى محاضرة عامة ذلك لأنه كان " يزدري دائما ازدراء واضحا: الفصاحة واللغة المنمقة ... وعلى الرغم من ذلك فلابد وأنه كان متحدثا مقنعا بصورة غير عادية ، سواء لفرد واحد أو لمجموعة صغيرة "[٣] فلابد أنه دافع عن مبادئه بكل ما أوتي من قوة ثورية، ولكنها الثورية العاقلة التي تؤمن بخلود الكلمة وتأثيرها.

علاقة الكلمة بالمجتمع عند كنفشيوس إنما هي تعبير عن الفعل الصادر عن الرجل الأعلى ، فلا يمكن أن يكون للكلمة تأثير ما لم تسبق بعمل ؛ لأن من يتكلم قبل أن يعمل إنما هو رجل يعبر خالص التعبير عن النفاق والكذب.

(١) تاريخ تطور الفكر الصيني ، مجموعة. ص٥٠.مرجع سابق.

(٢) هـ . ج . ويلز. موجز تاريخ العالم. ص١٣٨ت: عبد العزيز توفيق جاويد. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٣) هـ . ج . كريل . الفكر الصيني . مرجع سابق. ص٤٥.

تعقيب:

يعتبر كونفشيوس من الفلاسفة الذين ينتمون في تحديدهم للمعيار الخلقي إلى أصحاب المعيار العقلي حيث ذهب إلى تفسير المبادئ الأخلاقية بالعقل ، وجعل غايتها عقلية.

وأهم خصائص هذا المعيار في ذلك الاتجاه: أن القيم الأخلاقية عامة ليست جزئية ، ضرورية وليست عرضية جائزة ، واضحة بذاتها لا تحتاج إلى برهان ولا تحمل تناقض ، ولكنها تحتاج إلى تعلم لاكتسابها وممارسة لتطويرها.

يؤمن كونفشيوس بتأثير البيئة الإيجابي أو السلبي على الإنسان لذا فهو ينادي بالتفكر والتأمل والرياضة لكي يقوي الإنسان الجوانب الإيجابية في ذلك التأثير ويضعف الجوانب السلبية.

الفطرة عند كونفشيوس إن لم تكن خيرة فعلى الأقل ليست شريرة أيضا، فلا مجال لعدم المساواة بين الناس بالنظر إلى النسب أو أصل الخلقة أوالعرق ، لأنهم إذا ما كانوا كلهم يستطيعون تحصيل الفضيلة فإن الفرق بينهم يكمن في إرادة الإنسان أن يرتقي بالمعرفة والتعلم أم لا.

للأخلاق عند كونفشيوس جانبان: نظري ، وعملي ولقد كان الجانب العملي أساس فلسفته الخلقية ، وأما الجانب النظري فقد استمده من تجربته فهو لم يكن أبدا مدرسا أكاديميا.

يؤمن كنفشيوس بالفرد ، ولكنه يؤمن أيضا بالمجتمع ، كما أنه يؤمن بالثورة على الباطل ، ولكنه يكره الفوضى والانحلال ، فهو مفكرر متزن يعمل على تقوية العقل دون أن يهمل أبدا الوجدان العاطفي.

آمن كنفشيوس بنفسه إيمانا مطلقا ظهر ندما كان يعارضه قومه فكان يقول: ولكن السماء تفهمني ، الأمر الذي لا يدل على أنه آمن بالإله بقدر ما يدل على أنه آمن بنفسه التي تستمد المعرفة من النفس الكلية التي منها كان العالم بوحدته المطلقة ، تلك الوحدة التي بحث عنها كنفشيوس لينسجم معها في تيارها اللانهائي عن طريق الالتزام بالطاو أو الطريق.

خاتمــة

ضمن الباحث هذه الخاتمة الإجابة على الأسئلة التي طرحها البحث في مقدمته.

لقد أعطي كونفشيوس إجابة مؤكدة قيما يتعلق بالسؤال الأول حين أفصح عن نسق أخلاقي شامل حدد فيه فضائل الرجل الأعلى وكيفية ترقي الإنسان ليصل إلى هذه المرتبة.

رغم أن كونفشيوس لم يكن يدون مذهبه على أساس منهجي إلا أنه كمعلم وضع منهجا تعليميا لتلامذته فمن الواضح أنه تأثر بذلك حيث يمكن استخلاص عناصر فلسفته من جملة مواقفه ومن أقواله التي حرص . فيما يظهر . كل الحرص على أن تكون قاطعة صريحة ، كونفشيوس لم يكن ليعطي الحلول كاملة لأن الحكمة غير قابلة للتلقين كلها ولكن يكفيه أن القدر الذي حدده لنفسه من الردود ليكون فيه إجابته يظهر أنه لم يكن من محبي الغموض والتقعير.

وحتى لا أدرية كونفشيوس . المزعومة . بشأن الأرواح والميتافيزيقا بشكل عام كانت إجاباته واضحة سواء بالنسبة لمن حكم عليها بالا أدرية أو من حكم عليها بالكفر بهذه المباحث ، فقد كان كونفشيوس يرفض الحديث عن هذه المسائل بكل وضوح.

لم يغفل كونفشيوس أي جانب من الجوانب الإنسانية فهو يتحدث عن عقل الإنسان ووجدانه ، ويتحدث عن أعماله وغاياته ، ولا يغفل الحديث عن بدنه وسماته الشكلية ، ثم يتحد عن علاقة الإنسان بمجتمعه ، ومن قبل ذلك كيفية تحصيل المعرفة وبالتالي الأخلاق ، وكيفية العمل بها.

ويحرص كونفشيوس كل الحرص على أن يكون منظومة متكاملة محلها الإنسان ، من هنا فإن الباحث يستخلص من بحثه أن الناس أمام مذهب كونفشيوس الأخلاقي إنما هم أما مذهب مترابط بكل موضوعاته لا

تشذ جزئية فيه عن الأخرى ، ولا يرى الناظر في الأخلاق الكونفشيوسية شيئا من تناقض ، وذلك فيه ما فيه من دلالة على أن ذلك الرجل كان مثالا للصدق الباطني والخارجي بحيث لا يختلف قوله من حين لآخر ، ولا يتناقض فعل له مع فعل آخر.

إن النمط الأخلاقي عند كونفشيوس يتخذ شكلا هرميا رباعيا قمته الوحدة والتناسق وتحصيل الانسجام ، وجوانبه فضائل أربع: محبة الحب ، الالتزام بالقيم العامة ، والاحترام المتبادل للعائلة ، والاستعداد الذاتي مع استقامة المنهج ، وقاعدته الفطرة الإنسانية التي هي عين الطريق " الطاو " أو أوامر السماء " النفس المطلقة ".

والحيز المكاني لتلك الأخلاق الكونفشيوسية يشمل الجنس البشري بأكمله ويظهر في المبادلة والتعامل مع الغير ، والحيز الزماني مطلق لا حد له لأن تلك الأخلاق مطلقة كلية.

على الرغم من أن كونفشيوس لم يفصل القول في كثير من الإشكاليات الفلسفية فإن مذهبه وفكره يمكن أن يعتبرا نسقا فلسفيا متكاملا ؛ لأن كونفشيوس يتحدث عن كل تعامل إنساني مع الوجود حتى تعامله مع الميتافيزيقا قد حدده.

ليست العبرة من الفلسفة أن تجد الحل الكامل ولكن العبرة منها أن تضع برهانا لكل حكم افترضت صحته ، وإذا كان الباحثون قد اعتبروا ما تحدث عنه فلاسفة الإغريق من أمور لا برهان عليها فلسفة ، فإن كونفشيوس هو الأولى بنسبته إلى الفلسفة لأنه رفض أن يحكم على شيء لا برهان له به ، فلم يتورط في حديث ما يأتي الناس من بعده ليعتبروه أساطير الأولين ، ولكنه كل ما تحدث به كان قد مارسه عمليا.

لم يك كونفشيوس نبيا فلم يتحدث عن أمور لا تعرف إلا بالوحي من تلقاء نفسه ، ولعدم البرهان على خطأ ما مارسه الناس في عصره من طقوس

لم يرفضها أو يستهجنها لمجرد الرفض والاعتراض كما أنه لم يثبتها لعدم الدليل.

ولم يك كونفشيوس خبيرا تجريبيا في مجال الطبيعة فلم يتحدث عن الظواهر العرضية بل هو يرفض الإجابة عن أسئلة عدالإجابة عنها الأطفال في عصره من البديهيات وتحمل السخرية والطعن عليه بنفس واثقة أكثر منها راضية لا يريد أن يخبط خبط عشواء.

ورغم ذلك فإن بذور المنهج التجريبي نجدها في الفلسفة الكونفشيوسية حيث لا يجب أن يتكلم الإنسان إلا بعد أن يعمل فيتكلم بما عمل.

لقد كان لكونفشيوس قوة نفسية جبارة ؛ فلم تعرف نفسه أبدا الشك المطلق كهؤلاء الذين دمروا عقول الكثيرين وسموا رغم هذا بالفلاسفة ، مع أن كونفشيوس يصرح بأن الكثير مما حوله لم يدركه بعد.

لقد كان الشك عند كونفشيوس شكا منهجيا نوعا ما فهو يفكر في كل اتهام يرمى به ، ويعمل دائما على السير في طريق الطاو دون انحراف ، ولا يضيره أبدا أن يعدل من مساره فها هو يرفض المنصب تارة ويقبله تارة أخرى ، يجوب الولايات بحثا عن الولاية ، ولكنه نفسه يقدم على الاستقالة ، وكله ثقة في أن الحق المطلق أو السماء تساعد هؤلاء الذين يحاولون مساعدة أنفسهم.

قائمة المصادر والمراجع

رتبت المراجع ترتيبا أبجديا.

١. أرسطو.

الترجمة العربية. الأخلاق النيقوماخية.ت: إسحق بن حنين ، حققه وشرحه وقدمه د/ عبد الرحمن بدوي. وانظر أيضا: ت: أحمد لطفي السيد . دار الكتب العربية . القاهرة . ١٤٢٩م.

٢. د/ إمام عبد الفتاح إمام.

الأخلاق السياسية. المجلس الأعلى للثقافة.٢٠٠١م.

٣. د/ توفيق الطويل.

الأخلاق والسياسة. الأسكندرية. ط ١٩٤٩م.

٤. جمال المرزوقي .

الفكر الشرقي القديم . دار الأوقاف العربية . القاهرة . ٢٠٠١.

٥. جون كولر .

الفكر الشرقي القديم . ت: كامل يوسف حسن . م: د/ إمام عبد الفتاح . المجلس الوطني للثقافة والفنون . الكويت .١٩٩٥م .

٦. حربي عباس عطيتو.

ملامح الفكر الفلسفي عند اليونان. دار المعرفة الجامعية.

٧. لاوتسو.

الطاو. ت: محسن فرجاني.

٨. مجموعة من المؤلفين .

شانج يويوان . يوجين جي . صون كاي . تاي ، تاريخ تطور الفكر الصيني . ت: عبد العزيز حمدي عبد العزيز. المجلس الأعلى للثقافة.ط: الأولى. ٢٠٠٤م.

٩. د/ محمد السيد الجليند.

قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي. ط٢. مطبعة الحلبي.١٩٨١م.

١٠. د/ مدحت محمد نظيف .

الألوهية في الفكر الإنساني القديم . مطابع دار الوثائق. ٢٠٠٨/٢٠٠٧

١١. د/ مراد وهبة .

ملاك الحقيقة المطلقة . الهيئة المصرية العامة للكتاب.١٩٩٩م.

١٢. د/ هالة أبو الفتوح .

فلسفة الأخلاق السياسية . دار القيادة للطباعة والنشر.٢٠٠٠م.

١٣. هـ . ج . كريل .

الفكر الصيني من كنفشيوس إلى ماوتسي تونج .ت: عبد الحميد سليم . م: علي أدهم . الهيئة العامة المصرية للكتاب. ١٩٩٨م.

١٤. هـ . ج . ويلز.

موجز تاريخ العالم. عبد العزيز توفيق جاويد. الهيئة المصرية العامة للكتاب.٢٠٠١م.

١٥. ول ديورنت

قصة الحضارة . ت: د/ زكي نجيب محمود ، ومحمد بدران. الهيئة المصرية العامة للكتاب . ٢٠٠١.